مراجعات

Mona Saudi, InTime of War: Children Testify
(Beirut, Mawaqef and P. F. L. P., 1970).

« شهادة الاطفال في زمن الحرب » ، ليس كتابا يتناول احد اوجه القضيـــة الفلسطينية بالمعنى المتعارف عليه منذ زمن ، غير أنه حري بالاهتمام شأنه شأن اكثر الكتب اتصالا بواقـــع الشعب الفلسطيني ونضاله في اسخن مراحله في التـــاريخ المعاصر . انه « ألبوم » غني بأكثر من مئة صورة رسمت بأقلام اطفال المخيمات والوانهم ، يعطينا اول فرصة « لقراءة » افكار اطفال النزوح الثاني عشية حرب حزيران ١٩٦٧ ومعركة الكرامة وما تلاها من زخم نضالي ، ولان الاطفال ، عندمـــا يودون أن يقولوا شيئا فأنهم يرسمون ، فـــأن الكتاب ــ الالبوم ، يقدم لنا بلغة الطفولة نتفا مما قالوه في الحرب والنزوح ، وفي حياة المخيم اليومية، في الفدائي، ولا ينسى الاطفال ان يرووا ايضا حكاياتهم الصغيرة الاخرى، بالزخرفة واللعب والتلوين . لذلك يمكن القـــول ، ان اطفـــال المخيمات ، عبر كتاب منى السعودي ، قد أوصلوا اصواتهم عاليا هذه المرة باللغة التي تروق لهم ، وكم هو مبهج ذلك الصدى الذي تلقاه اينما وصلت هذه الاصوات النزقة ، اذ انني ، في حدود ما اتصل بي ، قد رأيت نتفا منها في صحف فرنسية والمانية وامريكية ، بالاضافة الى مـــا تداولته الصحف العربية ، وهو ليس بالقليل .

مع ذلك فان الكتاب ، بأهميته الاستثنائية ، لا يخلو من بعض اوجه القصور وبعض الثغـــرات والاخطاء سوف نتناولها في سيـــاق ملاحظاتنـــا التالية :

١ ــ يخلو الكتاب من ايـــة دراسة او ملاحظات مفيدة حول تجربة جمع رسوم الاطفال الفلسطينيين وعرضها ، ويبدو ان هذا لم يكن في نية منـــى السعودي اذ تكتب « ليس هذا الكتاب بحثا او دراسة لفن الاطفال ، انه وثيقة وضعها الاطفال الفلسطينيون برسومهم واحاديثهم » (ص ١٤) . غير ان هذا لا يعفي الكتاب من تصوره من تقديم هذه الرسوم ضمن اطار تجربة اكتسبت مدلولات اجتماعية ونفسية وسياسية وثقافيـــة في حقبـــة تاريخية هامة ، اذ لا يكفي ان يردد لسان حال « الرسوم تفسر نفسها بنفسها » لتدفع عن انفسنا مهمة استخلاص جملة من النتائج نحن اقدر على صوغها بحكم اتصالنا بالتجربة ، والتي قد تقدم اساسا اوليا للمعنيين والمهتمين بدراسة رسوم الاطفال(١). وحتى المقدمة التي صاغتها محرر الكتاب ، قاصرة جدا عن ايفاء هذه المهمة ، فهي مشوشة ، رومانطيقية ، ذاتية ، تحفل بمشاعر « رحلة » ولا تقدم أوليات منهج للتجربة ، كـــأن تقول « في اليوم الاول استقبلوني بالشتائم وعبارات الاستهزاء : « نحن لسنا للفرجة ، روحوا اتفرجو على شيء آخر » . خجلت منهم وكدت اعتذر . بعد ايام عرفوني وعرفتهم . نبتت بيننا صداقة » (ص ١٤ ، ١٦) . واذ تتحدث كيف تخاطف الاطفال الورق واقلام التلوين تقول « كانت أصابع الالوان تتحول بين أيديهم الى سكاكين حادة ، وكانت بهم رغبة عنيفة لحفر ذكرياتهم بكل كثافتها الحقيقية : فالحرب لم تكن حلما عاديا ، كانت حلما حقيقيـــ

---

١ ــ اقول هذا بوصفي قـــد شاركت منى في التجربة حتى عرض هذه الرسوم في مخيم البقعة في الاردن (٢١ ــ ١٩٦٨/١١/٢٤) ، ولعل هذا يطرح احد أوجه الخلاف بيننا ، اذ غالبا ما تنظر منى الى هذه الرسوم من منظار جمالي بحت ، فيما يفترض فينـــا ، ان نراها داخل اطارها الاجتماعي العام ايضا . وقد انعكس هذا على نهج كل منا في رؤية هذه الرسوم ، فاكتفت هي بعرض هذه الرســـوم ، وانصرفت شخصيا الى دراسة هذه الرسوم من جوانب متعددة . وعلى الرغم مـــن ان دراستي قيد النشر الا انني رغبت دومـــا في أن تقدم منى سعودي وجهة نظرها في هذه الرسوم . وهـــو ما كان مطلوبا منا بصورة خاصة (راجع تقديم د. صادق العظـــم للمعرض في كلمة نشرت في جريدة « الثورة » الدمشقية الصادرة في ١/٣/ ١٩٦٩) .